

في ظل الاحتلال الأمريكي: العشائر العراقية: ثقل الحضور ومخطط الاحتواء

صباح ياسين

أستاذ محاضر في الجامعة الأردنية، عمان.

«... وهكذا، من معركة الى أخرى، بنصر أو هزيمة، كانت القبيلة معين الحدث وميقاته، تسهم في صناعة التاريخ، معبرة، وبحكم جذورها العروبية الواضحة، عن امتياز الانتماء الوطني، ولمقاومة كل غريب محتل.

تحاول قوى الاحتلال، اليوم، توظيف القوى العشائرية العراقية لخدمة مصالحها، وذلك بتزييف إراداتها، وبافتعال كيانات وتنظيمات عشائرية تحت مظلة الاحتلال.

... الآن، وبعد الصخب الذي ترافق مع وصول الغنائم، جاءت مشكلة الرواتب والعطايا لشيوخ العشائر الذين وصلوا بأعداد متزايدة إلى بغداد. كان هؤلاء الشيوخ، بملابسهم الجديدة، وطريقة تصرفهم، يشبهون الأطفال أيام العيد... كثيري الصخب، سريعي الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، مع مطالب لا تنتهي لأنفسهم ولرجالهم...»

في هذا المقطع المنتقى من وسط تزامم الصورة البارة الدقيقة والتعبير عن تأريخ العراق خلال عقود الاحتلال العثماني، والذي قدمه في مضمون روايته الثلاثية أرض السواد الكاتب الراحل عبد الرحمن منيف، ليؤطر واقعة انتصار والي بغداد على «المتمردين» من مناطق الفرات الأوسط، وهي القبائل العربية التي كانت تشعر بقوتها ورغبتها الدائمة في المقاومة والرفض لسلطة الحكم في بغداد، وفي الوقت ذاته كانت هي خزائن الرجال التي تمد الوالي بالسواعد للدفاع عن سلطته، وأحياناً للتحالف مع أعدائه وتقويض سلطانه... وما دامت الولاية وهيبتها بحاجة الى القوة والرجال، فإن سلطة شيخ القبيلة تبقى حاضرة وجاهزة، مقابل الوعود بالمشاركة في فروع السلطة، أو بالمزيد من المكاسب من الأطنان والبساتين... وكل عقد وتحالف في موسمه، مؤقت أو دائم، وبتقاسيم تتناسب مع الظروف السياسية آنذاك.

وهكذا، من معركة إلى أخرى، بنصر وهزيمة، كانت القبيلة معين الحدث وميقاته، تسهم في صناعة تاريخ العراق، معبرة، وبحكم جذورها العروبية الواضحة، عن امتياز

الانتماء الوطني، ومقاومة كل غريب محتل، متمسكة بهويتها، وبالديمقراطية البنيوية المرتكزة على خصائص موروثية ومحترمة ومحافظ عليها بقوة لتشكل دعائم التكوين المؤطر بالإصرار على الهوية القادرة على مواجهة ظروف التفكير، لتعيد إنتاج ملامحها عبر تفاعل العلاقات اللغوية والثقافية معززة

تواجه القبيلة في العراق اليوم تحدياً جديداً، فالاحتلال الأمريكي يحاول أن يدخل ميدان القبيلة لتوظيف طاقاتها بعدما عجز عن تأطير قوى جديدة لإدارة العراق.

بالجذور الإيمانية - الدينية، ومنسجمة أو متعارضة مع استحقاق التطور الحضري، وبتدخل المدينة، ومركزية الدولة الحديثة في سيادتها وقيمها، ولكنها تبقى - القبيلة - وحدة متماسكة بقوة محافظة على وجودها الاجتماعي، لتوظف بعد الانتساب للأصل من أجل استمرار المصالح عبر انصهار النزعة الفردانية والولاء المشروط لسلطة رئيس القبيلة

أو شيخها، وللانفراد في العيش على أرض واحدة ومعبرة عن نزعة السيادة التي ستبقى عاملاً يرافق وجود القبيلة ويعبر عنه في أكثر من مناسبة.

واليوم، يواجه وجود القبيلة واستقرارها ودورها تحدياً جديداً لوجودها وتوازنها في إطار كيان الدولة المستقلة، فالاحتلال الأمريكي الباحث عن خارطة جديدة لتقسيم العمل السياسي في العراق، يحاول أن يدخل ميدان القبيلة ويعيد توظيف طاقتها، بعد أن عجز عن كسب وتأطير قوى سياسية جديدة لإدارة العراق، وهو بذلك، وكأي محتل، يسعى للبحث عن البدائل، أو العودة إلى الوراء للنظر إلى تجارب الآخرين، ودون شك ستكون هذه النظرة متجهة إلى تجربة الاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٧، الذي قوّض وأزاح سلطة الدولة العثمانية على أرض الرافدين، وواجه منذ أول أيامه مقاومة بأسلة من شعب العراق، وكانت القبائل ورجال الدين، وكل أبناء العراق مادتها الأساس. لذلك أعلن الاحتلال عن تشكيل مكتب لشؤون القبائل في العراق، فقد كشفت صحيفة إنديبندنت أون سان (Independent on Sun)^(١) أن العميد آلن كينغ رئيس مكتب شؤون القبائل قد اعتمد على تقرير بريطاني وضع عام ١٩١٨ عن التركيبة القبلية والعشائرية وأصولها^(٢) ودورها في العراق للبدء بتنظيم عملية ميدانية، وللتهيئة لمقدمات العمل السياسي نحو بناء النظام (السلطة) في العراق، ولإعداد تركيبة مختارة بعناية (المقصود هنا بالعناية هو ضمان

Independent on Sun, 18/1/2004.

(١) انظر:

(٢) القبيلة... نسق من التنظيم الاجتماعي يتضمن عادة جماعة محلية، وقد تتخذ عادة إقليمياً معيناً، ويكتنفها شعور قوي بالتضامن والوحدة، وتستند إلى مجموعة من العواطف الأولية، وتعتبر في نظر أعضائها ذات استقلالية سياسية... ويعد العلماء الانثروبولوجيون أن النسب (الدم) هو الرابطة الأساس، ولكن ذلك لم يصمد أمام واقع الاختلاط والدوافع الاقتصادية، في حين يرى ابن خلدون أن النسب هو شكل من أشكال التحالف والولاء والانتماء، ومواجهة الأخطار الخارجية التي تهدد الاستمرار والوجود... لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع (القاهرة: دار المعرفة، ١٩٩٠).

الولاء للمحتل !!!) من بعض من يتم كسبهم من رموز العشائر العراقية وإدخالهم في دورات متعاقبة^(٣) لتعليمهم «أصول» ومبادئ الديمقراطية وإعدادهم وتهيئتهم «لدور أفضل في قيادة العراق الجديد»^(٤).

إن هذا التوظيف المشبوه والمفتقر إلى أدنى مقومات فهم الواقع السياسي والاجتماعي للحياة العامة في العراق، وبإغفال متعمد للتاريخ النضالي للعراقيين ضد الوجود الأجنبي، أوقع الاحتلال في مأزق آخر، فالإرث الكفاحي المرتبط بالمصالح الوطنية والقومية التحررية للقبائل والعشائر العراقية قد استيقظ مرة أخرى ليقف في مواجهة هذه المحاولة الجديدة. فالوجود القبلي لا يعتمد على مجرد الإحساس بالتضامن، وإنما هو صياغة لتفاعل عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، وهي بذلك كيان معرفي - ثقافي له خصوصيته وهويته وأخلاقيته التي يحرص عليها كل فرد، باعتبارها حصناً يتمترس خلفه للمحافظة على خصوصيته ومصالحه في الوقت ذاته.

والقبائل العراقية التي تعزز اليوم بنسبها وأصولها، تحفظ في ذاكرتها تاريخ نزوحها من جزيرة العرب، موطنها الأول، واستقرارها في العراق، أرض السواد، حيث الماء والأرض الخصبة والنماء. وقد تعزز الانتساب إلى الأصول باعتباره فضيلة للتفاخر، ووسيلة للتمسك بالجنود وغاية للوصول إلى التفوق^(٥)، وتفاخر لا يضاهيه إلا بطولة الحرب... وكانت القبائل القحطانية من الأزدي وخزاعة ولخم، ومن القبائل العدنانية أباد وتغلب وبكر بن وائل وربيعة تتطلع نحو الرحيل نحو الشمال... إلى أرض العراق، تحت راية الفتح الإسلامي، ومن ثم مواصلة نشر راية الإسلام في عصر الدولة الراشدية وبعدها. ورغم أن موجات الهجرة نحو أرض العراق قد سبقت ظهور الإسلام بزمن بعيد، إلا أن مرحلة فتح العراق، وبروز دولة العرب، كوجود وحضارة، أعطى القبيلة العربية في العراق دوراً مهماً في شؤون الحياة، وفي ظهور الإقطاعيات الزراعية الواسعة التي كانت عنصراً أساسياً في

(٣) في هذا الإطار نشرت صحيفة الصباح الناطقة باسم قوات التحالف بتاريخ ١٦/١١/٢٠٠٣ خبراً يفيد أن المنسق العام لمعهد البحوث (R.T.I) في منطقة وسط وجنوب العراق قد كلف بإعداد دورة لرؤساء العشائر والسادة، وذلك في مقر جامعة الحلة للدراسات العلمية والإنسانية لشرح تجارب بناء الديمقراطية.

(٤) بروح وطنية وحذر مشروع من البرامج المشبوهة لقوات الاحتلال الأمريكي، تصدى شيوخ العشائر في العراق للمخططات التي تسعى نحو استغلال الفراغ السياسي والمدني في العراق لاستغلال العشائر العراقية لمصلحة الاحتلال... وقد نشرت صحيفة الساعة العراقية بتاريخ ١٢/٩/٢٠٠٣ بياناً صادراً عن الحركة الوطنية يدعو شيوخ العشائر إلى «حفظ المقامات لأهلها، وإلى أن تتعاهد العشائر جميعاً على منع أي تجاوز من أية قوة احتلال أجنبية أو محلية تمثل الاحتلال على شيوخ العشائر وحفظ مقاماتهم».

(٥) لقد عرف العرب في الجزيرة العربية أنسابهم وأصولهم وفروعهم، ولكن كانت بداية تنظيم الأنساب العربية في دولة الخلفاء الراشدين، ولعل ذلك يعود إلى الحرص على أصول القبائل العربية قبل انتشارها في الأقطار والأمصار التي فتحوها لنشر راية الإسلام، فقد أسس الخليفة عمر بن الخطاب الخطوة الأولى في جمع وتدوين سجل بأسماء القبائل، ودعا كل من عقيل بن أبي طالب، ومخرقة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من نسابين قريش، فقال لهم: «اكتبوا الناس على منازلهم...» لمزيد من التفاصيل، انظر: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٣، ط ٣ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)، ص ٢٦٥.

الاستقرار، وفي بناء الدولة العربية لاحقاً (الدولة العربية الأولى في دمشق (الأموية) والدولة العربية الثانية في بغداد، (العباسية)) ومنها انتشرت جحافل المسلمين نحو أصقاع الأرض للتبشير بالدين الجديد ومبادئه^(٦).

وقد أسهم استقرار الدولة العربية في كل من دمشق وبغداد، وتأسيس الأنظمة وبناء الدواوين وترسيخ الأعراف والتقاليد، في إعادة تشكيل وبناء دور القبيلة العربية المستوطنة مرة أخرى وتعاطم دورها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وإسهامها في ترسيخ أسس الحكم والقضاء والإدارة^(٧). وتحولت القبيلة^(٨) من جماعة متضامنة إلى كيان اجتماعي، ليس بالمعنى السوسيولوجي المجرد، ولكن إلى بنية تحكمها روابط وأهداف وغايات محددة، إلى جانب معززات ودوافع التضامن الآلي الذي يجسد وجودها المادي ويؤكد شخصيتها المعنوية^(٩). فقد تواصل ولم ينقطع دور القبيلة العربية عبر عصور تكوين الدولة العربية سواء في المشرق العربي أو مغربه، وتعزز ذلك حينما تعرضت الدولة العربية لمخاطر خارجية هددت وجودها، واستهدفت الوجود العربي في الأساس، فكانت مرجعية القبيلة المصدراً والسياج الذي حمى الوجود العربي من مخاطر الاحتواء والتفتت بعد سقوط بغداد على يد

(٦) قدم مركز دراسات الوحدة العربية النصوص الكاملة لوقائع الندوة التي عقدتها دائرة التراث العربي والإسلامي في المجمع العلمي العراقي، في كتاب بعنوان: الوطن العربي: النواة والامتدادات عبر التاريخ: وقائع الندوة التي عقدتها دائرة التراث العربي والإسلامي في المجمع العلمي العراقي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية؛ المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠٣). وقد تضمن الكتاب البحوث العلمية والتاريخية البالغة الأهمية والقيمة عن مسيرة وإرث القبائل العربية قبل ظهور الإسلام وبعده، وأثر الثقافة العربية والإسلامية ذات الطبيعة الإنسانية في ثقافات الشعوب التي تفاعلت وأسهمت في بلورة الثقافات المحلية للأقوام والشعوب التي وصل إليها الإسلام.

(٧) لقد برز من العرب في عصر الدولة العربية في الأندلس قضاة من أبرز بطون وقبائل العرب، وخاصة من بني شراحبيل وبني زياد وبني دينار وبني الحسن وغيرهم. وحسب رواية الخشني، فقد كان مجموع القضاة الذين تولوا قضاء الجماعة في قرطبة والصلاة بها حتى القرن الرابع الهجري اثنين وثلاثين قاضياً عربياً. لمزيد من التفاصيل، انظر: ناطق صالح مطلوب، «بيوت العرب في الأندلس ودورها في التعريب»، ورقة قدمت إلى: المصدر نفسه، ص ١٧٨.

(٨) في الغالب يشير مفهوم القبيلة (Tribalisme) إلى تغليب المجموعة القبلية للهوية التضامنية، مقابل مفهوم النزعة الفردانية، ووجد البعض أنه ينازع الأيديولوجيا الوطنية والقومية. ومع ذلك فإن الدلالة على مفهوم «القبيلة» بالصيغة التضامنية قد يترافق مع الفترات التاريخية التي يسود فيها التآزم، وعند ذلك تتحرك النزعة القبلية باعتبارها مجسدة للهوية والخصوصية، ومدافعة عنها عندما تتعرض للتحديات الخارجية.

(٩) يرى العلامة والمؤرخ ابن خلدون أن القبيلة لا تنحصر في معطى ومفهوم الانحدار من جد أول، إذ إن الإطار الحقيقي للقبيلة في منظور ابن خلدون هو النسب بإطاره الواسع والرمزي والمتشكّل في أطر متعددة مثل الولاء والتحالف والانتماء، إلى جانب الأرض (المكان) التي تعبر في النهاية عن مفهوم سيادة القبيلة، ويسهم في تعزيز لحياتها الاجتماعية، ولمواجهة المخاطر الخارجية. انظر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: وهو تاريخ وحيد عصره عبد الرحمن ابن خلدون، ٧ ج، ط ٣ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨).

الغازي هولكو (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م). فقد أعادت القبائل العربية تماسكها ووحدتها، واضطرت القوى الغازية للعراق إلى أن تستند في شرعية وجودها (كقوى احتلال تبحث عن مشروعية لدورها) إلى كسب رضا وولاء القيادات القبلية، أو إخضاع المعارضين لسلطانها بالقوة المباشرة أو بالترحيل عن مواقع زراعتها وقطع موارد رزقها.

أولاً: القبيلة بين موقفين

ولقد تواصل موقف القبائل العربية في رفضها للوجود الأجنبي على أرضها، وتسجل حالة العراق صورة (نموذجاً) من سجل متواصل لدور القبيلة العربية في الدفاع عن الانتماء للوطن والتمسك بالسيادة. وتقف القبائل في العراق^(١٠) اليوم أمام خيار وطني جديد، وكأن التاريخ يعيد نفسه بعد حوالي قرن في الزمن، عندما نهض الشعب العراقي ليقاوم المحتل الجديد الذي بدأ منذ يومه الأول باحتلال بغداد يكرس سياسة المستعمر المعروفة في التفريق وإشاعة الفتن والنزاعات المحلية^(١١)، بل إن بريطانيا وقبل أن تنفذ مشروعها لاحتلال العراق، وقفت وراء تمرد زعماء العشائر في عام ١٩١٠ - ١٩١١ ضد السلطات العثمانية، حين امتنعت بعض العشائر عن دفع الضرائب، وعملت السلطات البريطانية على دعم العشائر الثائرة بالمال والسلاح لمجابهة العساكر العثمانية^(١٢)، وتآليب العشائر ضد العثمانيين لتمهيد الطريق أمام فرض هيمنتها وانتدابها على العراق^(١٣).

وبعد احتلال العراق من قبل بريطانيا عام ١٩١٧، ورغم أن الجنرال مود قائد

(١٠) للاستفاضة عن أوضاع العشائر في العراق يمكن العودة إلى العديد من المصادر التي تناولت هذا الموضوع وفي مقدمتها دراسة الدكتور علي الوردي عن طبيعة المجتمع العراقي، انظر: علي الوردي، محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع (بغداد: [د.ن.]، ١٩٦٥). وإلى جانب ذلك هنالك العديد من الكتب والدراسات التي صدرت في العراق في العقد الأخير من القرن الماضي حول تأصيل تاريخ العشائر العراقية وفروعها، كذلك لأهم العوائل الكبيرة المتفرعة من تلك العشائر.

(١١) لقد اعتمد العثمانيون في بسط سيطرتهم على المناطق العربية التي احتلوها على سياسة إثارة النزاعات والصراعات بين القبائل، وتغذية الخلافات والنزعات العنصرية والطائفية، وعلى استعداد رؤساء العشائر بعضهم ضد بعضهم الآخر، أو إقامة تحالفات مرحلية تهدف إلى تكريس سياسة المحاور وتفكيك المرجعيات والأصول لمزيد من التفاصيل، انظر: زهير علي النحاس، «بداية الجزيرة (العراقية) موطناً للبداءة العربية (النجدية): قبيلة شمر الجربا (نموذجاً) ١٧٩١م - ١٩١٤م»، ورقة قدمت إلى: الوطن العربي: النواة والامتدادات عبر التاريخ: وقائع الندوة التي عقدتها دائرة التراث العربي والإسلامي في المجمع العلمي العراقي، ص ٢٦٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٥.

(١٣) يقول المؤرخ عبد الرزاق الحسني في كتابه عند الحديث عن وضع المجتمع العراقي في ظروف الاحتلال العثماني.. «كانت الانقسامات والاختلافات بين القبائل العراقية عامة، وبين قبائل الفرات الأوسط خاصة، موضع تشجيع السلطات التركية الحاكمة، فقد مزقت مشاكل الأرض والماء صفوفهم، وباعدت بينهم، فلما حل البريطانيون محل الترك في حكم العراق زادوا هذه المشاكل تعقيداً ووسعوا الخلاف بين القبائل». انظر: عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى (صيدا: مطبعة العرفان، ١٩٥٢).

القوات البريطانية الغازية قد ألقى خطبة عامة وعد فيها العراقيين بالحرية والاستقلال^(١٤)، إلا أن الحكومة البريطانية سرعان ما تنصلت من ذلك الوعد، وبدأت في تطبيق سياسة استعمارية لفرض سيطرتها على جميع أنحاء العراق وإخضاع العشائر العراقية لسلطة ضباط الاحتلال في المدن العراقية المختلفة^(١٥).

وفي مواجهة واقع الاحتلال البريطاني، فقد توحدت قوى المدن (النخب المتعلمة والمتنورة) مع العشائر، على الرغم من الهوة الواسعة التي تفصل، على مستوى الواقع الحضري، بين مراكز المدن والعشائر المنتشرة في عموم العراق^(١٦)، بسبب طبيعة واقع النشاط الاقتصادي في الريف، والذي يعتمد على الرعي والزراعة في ظروف قاهرة تحكمها الطبيعة وكوارثها المتكررة بسبب الفيضان السنوي لنهري دجلة والفرات وفروعهما في منطقة الدلتا الخصبة الممتدة من وسط إلى جنوب العراق. وهنا يفترض أن نلاحظ بدقة أن مفهوم سكان المدن أو «الحضرين» هو ليس مفهوماً مطلقاً وعماماً، إذ إن المدن الرئيسية في العراق قد تشكلت أساساً من الهجرة المستمرة، وبشكل خاص هجرة عشائر معينة تستقر في مناطق محددة من المدن الكبرى^(١٧). وكانت تلك المدن تستوعب وتصهر تلك

(١٤) دخل الجنرال مود، القائد العام للقوات البريطانية بغداد في الحادي عشر من آذار/مارس عام ١٩١٧م، وأعدت له الدوائر البريطانية السياسية في الهند منشوراً ليذاع على أهل بغداد جاء فيه: «إن المأمول لهو مأمول بريطانيا العظمى، والأمنية أمنيتها، بل هو مأمول الدولة المتحالفة معها، وإن تسمو الأمة العربية مرة أخرى عظمة وصيتاً، وأن تسعى كتلة واحدة وراء هذه الغاية بالإنماء والوثام». وليس غريباً أن يتكرر مثل هذا الخطاب اليوم، وبذات المفردات والتعبيرات المضللة والمشحونة بالأكاذيب من قبل الولايات المتحدة بعد احتلالها للعراق.

(١٥) بعد أن تصاعدت معارضة العشائر العراقية للاحتلال البريطاني، عمدت السلطات البريطانية إلى إصدار نظام أسمته «نظام دعاوى العشائر المدنية والجزائية»، وذلك في ٢٧ تموز/يوليو ١٩١٨، وقد جرت على هذا القانون تعديلات بعد إعلان الحكم المدني، أهمها قانون تعديل نظام دعاوى العشائر المدنية والجزائية لسنة ١٩٢٤، كما عدل مرة أخرى عام ١٩٣٣، واستمر العمل بهذا النظام حتى الإطاحة بنظام الحكم الملكي في ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨. وإلى جانب هذا النظام الذي وضعته قوى الاحتلال، فإن العشائر العراقية كانت متمسكة بتقاليدها وأعرافها، وكانت تعقد الاتفاقات والمصالحات وحسم المنازعات دون تدخل خارجي، ومن أمثلة ذلك الاتفاق الذي وقع عام ١٩٣٦ بين عشائر أبو محمد وعشائر الأزييرج وعشيرة السودان وعشيرة السواعد، الكورجة، وعشيرة السواعد، بيت زامل، وعشيرة الهادل، انظر: جابر عبد الله الجويرادي، «محمد العربي والعرف العشائري»، التراث الشعبي (٢٠٠١)، ص ٧٥.

(١٦) يرى حنا بطاطو في كتابه جانباً آخر للخلاف بين مراكز المدن ومناطق العشائر... «إن التباعد النفسي والاجتماعي بين العرب الحضريين والعرب العشائريين في مرحلة الحكم العثماني كان مؤثراً في تحقيق الترابط والتوحد، فقد كانت حياة العرب الحضريين تخضع بشكل عام للقوانين الإسلامية العثمانية، أما حياة العرب العشائريين فكانت تخضع للعادات العشائرية القديمة المصبوغة بصيغة إسلامية»، انظر: حنا بطاطو، العراق، ترجمة عفيف الرزاق، ج ٣ (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٠)، ص ٣٢.

(١٧) عند ملاحظة تتابع كوارث الحروب والفيضانات والمجاعات والأوبئة التي تصيب كل مدن وأرياف العراق، فإن هجرة أبناء العشائر تشكل تعويضاً مستمراً للموجود البشري، ويلاحظ أن الكثير من المحلات السكنية في بغداد القديمة ما زالت لغاية اليوم تحمل أسماء العشائر التي حطت فيها رحالها عند انتقالها إلى المدينة، وفي جانب الكرخ هناك محلات سكنية تحمل أسماء الدوريين والسوامرة والتكراتة، وفي الرصافة هناك محلات العزة والبو شبل والقررة غول والبومفرج وغيرها.

الجماعات وتحاول إدخالها في نظامها الاجتماعي والاقتصادي، ويمكن أن نقول إن المدينة تحاول توظيف قيمها وتقاليدها مع القيم الوافدة إليها^(١٨)، وبالتالي فإن العشائر الوافدة إلى المدينة سوف تحمل معها بالتالي قيم العصبية وتقاليد عزة النفس ورفض الهيمنة الخارجية، وتسعى للحفاظ عليها داخل مجتمعاتها السكنية في إحياء المدن الكبرى، وبالتالي فإنها ستسهم لاحقاً في صياغة الموقف السياسي الوطني لرفض الأجنبي ومقاومته^(١٩).

واليوم حين نستذكر موقف العشائر العراقية في مواجهة الأجنبي المحتل، فإن مرجعيتنا في ذلك تاريخ العراق الحديث، وبشكل خاص المقاومة الوطنية الباسلة لكل أبناء العراق في المدن ومناطق العشائر للاحتلال البريطاني والظروف المحيطة والمرافقة لتفجر ثورة العشرين الوطنية التحررية (٣٠ حزيران/يونيو ١٩٢٠). ويذكر المؤرخ عبد الرزاق الحسني^(٢٠) الذي كتب ووثق أحداث ثورة العشرين أن «الحرب،

العشائر الوافدة إلى المدينة لا بد أن تحمل معها قيم العصبية وعزة النفس ورفض الهيمنة الخارجية.

وسوء الإدارة، وعنف الموظفين البريطانيين ضد رجال القبائل، قد بعث في رجال القبائل روح التكتل، وتناسي الضغائن والعصبية القبلية، حيث حلت محلها العصبية القبلية العامة... وقد توهم الانكليز في أن بذلهم المال، خلال الحرب،

يؤمن لهم امتلاك عقول الناس وقلوبهم، غير أن تحسن الوضع الاقتصادي والمالي، واليسر الذي نشأ بسبب الحرب، وحاجة الجيش المحتل إلى المنتج الزراعي المحلي مهما بلغت أثمانه، قد يسر جمع ثروات طائلة بأيدي العراقيين الذين يحفزهم الطموح نحو الحرية، ونحو البذل في سبيلها، فاستعان بعض القبائل بهذه الثروة الطارئة، على شراء العتاد والسلاح والبذل بسخاء في سبيل تحرير البلاد من الهيمنة الأجنبية).

إن هذا الموقف الوطني المستند إلى الشعور بالمسؤولية التاريخية لدى عشائر العراق تجاه موضوع السيادة والحرية إنما يستند إلى قيم العشيرة - القبيلة - ذاتها، وإلى عصبية (استقلالية) تحرض على الخلاص من الهيمنة الأجنبية، وهذه العوامل أسهمت في تكوين عوامل التمرد على الواقع (الاستسلام) والتحريض على الثورة، على الرغم من الفارق الكبير على مستوى التسليح والتجهيز والموارد الساندة لكل من القوات البريطانية

(١٨) إن المواطن القادم من رحم العشيرة إلى وسط المدينة الكبيرة، لم يتخل عن مفاهيمه وثقافته وقيمه السابقة، بل هي تتجدد وتتوسع بالتلاقح مع قيم المدينة هذه المرة، ومع ذلك ومع مرور الزمن قد يحدث الاندماج وتحول الولاءات من القبيلة إلى المجتمع المدني وفي إطار وطني عام، وتدخل تلك الجماعات القبلية النازحة نحو المدينة في عملية الاستيعاب والانسجام وفي وعاء ثقافي ومعرفي يتبع بشكل أو بآخر لحضور الدولة وقوانينها.

(١٩) يتعرض أمين المعلوف في كتابه لموضوع التحول في موقف الفرد المهاجر، وفي تغير ولاءاته، وفي انصهاره لاحقاً في إطار الموقف الوطني للوطن الذي يسكن فيه ويبدأ في تأسيس روابطه الاجتماعية من خلاله. انظر: أمين المعلوف، الهويات القاتلة، ترجمة جبور النويهي (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩٩).

الغازية والعشائر العراقية التي بالكاد كانت تملك البنادق التركية القديمة التي تركتها القوات العثمانية المنسحبة وراءها في العراق. فالمدينة الخارجة من قرون الاحتلال العثماني القمعي والمتخلف، حتى بالنخب السياسية والاجتماعية الموجودة فيها^(٢١)... تلك المدينة لم تكن قادرة على النهوض وحدها، دون العشائر الثائرة في مواجهة المحتل وقوته المتفوقة تسليحاً وتدريباً. وكانت قوة العشائر في قيمها وفي تحالفها مع المرجعيات الدينية المتنورة وفي ولاء الرجال لقياداتها، وبشكل عام في وعي وإدراك العراقيين أن المحتل الجديد لن يختلف عن سلفه، قد أدركت أن فرصة الحصول على الاستقلال تقترب مع توحيد صفوف العراقيين وإيمانهم بالسيادة والتحرر، وهي فرصة لا يمكن أن تتحقق دون وحدة وطنية شاملة تجمع في إطارها كل قوى الشعب في المدينة والريف.

ثانياً: فرصة العمل الوطني من أجل الحرية

ومع فشل إدارة قوات الاحتلال في الوفاء بعهودها المعلنة وتحقيق الاستقرار في العراق، ومع تصاعد الأعمال العدائية من قبل قوات الاحتلال ضد المواطنين العراقيين وضد أبناء العشائر، بدأت بوادر الثورة تتجمع وتتلاقى وتنضج، وتذكر جيرتروود بيل في أوراقها الشخصية^(٢٢) تفاصيل عن الطريقة التي تعامل بها الضباط السياسيون البريطانيون في مناطق العشائر، وبشكل خاص مناطق وسط وجنوب العراق. وتقول في رسالة كتبها بتاريخ الثلاثين من آب/أغسطس ١٩٢٥ «إن مجرد نفكري باطلاعك على ما أدونه من انتقادات صريحة تتعلق بتصرفات كبار القادة العسكريين البريطانيين في العراق، وأساليب عملهم ترسل في كياني قشعريرة». وفي الوقت نفسه تشير إلى تصرفات محددة من بعض السياسيين^(٢٣) «إن الهاجس الحالي للجنرال السير هالدين هو أن تمرد العشائر

(٢١) لقد شهد بداية القرن الماضي (القرن العشرون) زيادة في عدد الشباب العراقيين الملتحقين بمدارس التعليم العالي التركية، وخصوصاً الأكاديمية العسكرية في اسطنبول... بالإضافة إلى زيادة التعرض لطرق التفكير الأوروبية، وانتشار الصحف والمطبوعات، وتوسع الاتصالات العربية - العربية، وظهور النوادي والجمعيات العربية، وارتفاع مشاعر التحسس بالفقر والتخلف... كل ذلك أسهم في تعاظم الشعور الوطني لدى العراقيين في مواجهة الغزو البريطاني عام ١٩١٧، وقد اتضحت إمكانية تولي أبناء العراق لزمام الحكم بشكل مستقل. انظر: بطاطو، المصدر نفسه، ص ٤١.

(٢٢) اليزابث بيرغوين، جيرتروود بيل: من أوراقها الشخصية، ١٩١٤-١٩٢٦، تقديم عبد الرحمن منيف؛ ترجمة وتعليق نمير عباس مظفر (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢)، ص ٢٧٧.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٤، ولقد مارست بيل من خلال رسائلها انتقادات سياسية مباشرة للإدارة البريطانية وإجراءاتها في العراق، وبشكل خاص تصرفات الإدارات المحلية المتمثلة بدور الضباط السياسيين في المدن العراقية. في الوقت ذاته كانت تحاول مد جسور من العلاقات الشخصية على بعض الرموز من الزعماء المحليين ورؤساء العشائر، وقد أسهمت بيل في جمع بعض شيوخ القبائل وإغرائهم على توقيع عرائض يطالبون فيها باستمرار الانتداب البريطاني. وقد نشرت جريدة الاستقلال البغدادية في الثاني والعشرين في حزيران/يونيو عام ١٩٢٠، وكذلك في الخامس والعشرين منه، مقالتين مفادهما أن شيوخ العشائر رفضوا الاستجابة لتلك المطالب، الأمر الذي أدى إلى قيام سلطة الاحتلال باعتقالهم.

يعود بالأساس إلى ما ولده ضباط سياسيون معينون لدى الناس من شعور بالكراهية، ويؤسفني القول إن الجانب هذا لا يخلو من صحة في ما يتعلق بالديوانية. وإذ أقول ذلك، فإنني أعني أن قيام التمرد يعود فقط إلى ما لدى الناس من شعور بالكراهية ضد الرائد دالي (Major Daly)، إلا أن شعور الكراهية هذا قد عجل بتفاقم الأمور».

وما إن انطلقت شرارة الثورة، حتى تداعت مدن العراق وعشائره مجتمعة إلى نداء تحرير الوطن من المحتل، وتراجعت العصبية، وتأجلت النزاعات وعطلت الخلافات، واجتمعت راية الثورة والمقاومة ضد الاحتلال

لقد تواصل موقف القبائل العربية في رفضها للوجود الأجنبي على أرضها، وما حالة العراق إلا نموذج من سجل متواصل لدور القبيلة العربية في الدفاع عن الانتماء إلى الوطن والتمسك بالسيادة.

خلف مرجعيات مدنية وعشائرية ودينية. ولم يذكر مؤرخو تلك الحقبة أن رجال الثورة تنازعوا على الزعامة، بل على عكس ذلك، فقد تشكلت في المدن العراقية حكومات محلية تشرف على تنظيم قضايا الحياة اليومية^(٢٤)، إلى جانب طباعة وتوزيع المنشورات^(٢٥) العامة التي تحض على الجهاد والصمود، كذلك صدر العديد من الصحف المساندة للثورة^(٢٦)،

واتسعت شرارة الثورة لتشمل كل مدن العراق ولتوقع خسائر كبيرة بالقوات البريطانية^(٢٧)، مما أدى إلى انسحابها من العديد من المدن الرئيسية.

وتأكد لبريطانيا المصاعب الكبيرة التي تواجهها في بسط نفوذها على العراق، ووجدت أن ثمار سياستها الاستعمارية هي المزيد من الخسائر، وتنامي مشاعر الكراهية، وتوحد العراقيين خلف راية الاستقلال الوطني. وتحولت النخب السياسية المتنوعة في المدن إلى جبهة العمل السياسي بالتحالف مع القيادات العشائرية الثائرة، والمرجعيات الدينية التي وقفت

(٢٤) يذكر المؤرخ عبد الرزاق الحسني «أن الحكومات المحلية كانت تمارس مهمات يومية، مثل الإدارة والتموين وجباية الضرائب وتموين جبهات القتال...» في: الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص ٢٣٩.

(٢٥) أصدرت جمعية حرس الاستقلال مناشير خطية، وكانت توزع أو تلصق في المحلات العامة، وقد سجل المؤرخ حسان علي البزركان في كتابه من أحداث بغداد وديالى أثناء ثورة العشرين في العراق تفاصيل دقيقة عن أساليب التعبئة الفكرية والشعبية التي اعتمدت في ثورة العشرين.

(٢٦) صدرت لثورة العشرين العديد من الصحف اليومية، منها صحيفة الفرات التي أصدرها الشيخ محمد باقر الشببي في مدينة النجف، كذلك صحيفة الاستقلال التي أصدرها السيد محمد عبد المحسن الكاظمي في مدينة النجف أيضاً، هذا إلى جانب الصحف الوطنية الصادرة في بغداد والتي اتخذت موقفاً مسانداً للثورة ورجالها.

(٢٧) يوجز المؤرخ عبد الرزاق الحسني، واعتماداً على مصادر بريطانية، خسائر قوات الاحتلال حوالى ثلاثة آلاف بين قتل ومفقود، هذا إلى جانب ما تكبدته «الخزينة البريطانية» من مبالغ مالية تقدر بأربعين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية... وفي الواقع، فقد خسرت بريطانيا أكثر من ذلك بكثير جداً، فقد خسرت هيبتها ومشروعها في احتلال العراق والبقاء فيه لفترة زمنية أطول.

موقفاً إيمانياً في تأييد الثورة والعمل الوطني، وأصدرت الفتاوى في مشروعية الجهاد ضد المستعمر، والعمل الموحد مع كل قوى الشعب من أجل الظفر بالاستقلال والسيادة.

تأكد دور العشائر في حياة العراق عام ١٩٢١ ثم في الثلاثينيات حين اندلعت أعمال مسلحة معارضة للسلطة في مناطق الرميثة والفرات الأوسط لتعزيز مطالبها بتحقيق العدالة الاجتماعية وضمان انتخابات حرة نزيهة.

وقد تأكد دور العشائر في حياة العراق لاحقاً، أي بعد تأسيس العهد الوطني عام ١٩٢١، فقد كان من نتائج ثورة العشرين سلباً هو تجريدها من أي امتياز حصلت عليه نتيجة دورها في الثورة، ولكن هذه المحاولات كانت تواجه بمقاومة من العشائر، وظهرت بشكل بارز خلال مرحلة الثلاثينيات من القرن الماضي، حيث اندلعت مرة أخرى أعمال مسلحة معارضة للسلطة في مناطق الرميثة والفرات الأوسط عموماً^(٢٨). وقد تعززت مطالبها بتحقيق العدالة الاجتماعية، وضمان انتخابات

حرة نزيهة تحقق لكل العراقيين فرصة التعبير عن الرأي والمشاركة بالحياة السياسية. واليوم والعراق يقف على عتبة تحولات سياسية مهمة على صعيد استعادة الاستقلال الوطني وطرد الاحتلال وبناء الحياة الديمقراطية على أسس وقواعد سليمة وتحقيق المشاركة وتأكيد دور كل قوى المجتمع، بكل التنوع الإثني والمذهبي والسياسي في

(٢٨) تنامت الأوضاع سوءاً في منتصف العقد الثالث من القرن الماضي، وتلبدت غيوم الثورة مرة أخرى نتيجة تصرفات سلبية لأجهزة الحكم ضد رموز العشائر في مناطق السماوة والرميثة، انظر: حليم حسن الأعرجي، الشيخ الخوام (بغداد: [د.ن.]، ٢٠٠٢). ويذكر المؤلف هذا الحوار الذي جرى من أحد قادة الثورة الشيخ خوام بن عبد العباس بن زهور شيخ عشيرة بني ازيبرج وبين رشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية آنذاك.

- أنا رشيد عالي... يا شيخ خوام.
- رشيد أي نعم.. ولكنني عالي.. ما عرفنا غير الله هو العالي.
- أنا رشيد عالي يا شيخ خوام .
- وكيلاني أي نعم.. ولكنك لست عالي.. انك متعالي، أي نعم.
- لماذا كل هذا.. لماذا ترفعون سلاحكم بوجه الحكومة؟
- اسأل حليفكم بريطانيا.. لماذا تقصف بيوتنا ومزارعنا بهذه الوحشية وبهذه القسوة، هل هي ثارات العارضية والرارنجية.
- يا شيخ خوام... انتم أجبرتمونا على ذلك.
- الآننا نطالب بالاستقلال.
- وماذا تريدون؟
- تنفيذ الميثاق والذي وافق عليه أكثر من ٦٩ شيخاً ورئيساً ووجيهاً في عموم العراق... فالميثاق يضمن تحقيق الاستقلال.

إطار موحد لبناء العراق، فإن محاولة قوى الاحتلال توظيف حالة العشائر، ونزع روح الجهاد من قيادتها، وتزييف إرادتها، بافتعال أشكال ومنظمات وتجمعات عشائرية تحت مظلة الاحتلال، إنما هي محاولة قديمة - جديدة، تعبر عن عجز العقلية الاستعمارية عن إدراك وفهم عمق التقاليد وصلابة القيم، ومستوى الحياة الديمقراطية الحقبة المعتمدة داخل القبيلة العربية، سواء على مستوى اختيار القيادات، أو أسلوب عملها في ميدان اتخاذ القرارات أو حل المنازعات والخلافات، وإقامة التحالفات والمواثيق مع القبائل الأخرى، وما يحمله «الديوان» أو «المضيف» من تقاليد ديمقراطية، سبقت في عمق التاريخ، أو جذور الممارسة، كل ما تدعيه قوات الاحتلال عن عزمها على إرساء الديمقراطية في العراق، أو كما تدعيه في تعليم وتدريب رؤساء العشائر

على المفاهيم الديمقراطية^(٢٩). وقد اتجهت نحو مدن الفرات الأوسط، وكأنها تستهدف تاريخ الفرات الأوسط الوطني، وتحاول الإساءة إلى الإرث الكفاحي والمواقف الوطنية الأصيلة لعشائر هذه المنطقة الباسلة من العراق. إن المفارقة هنا هي أن يسعى الاحتلال نحو بناء الديمقراطية، رغم التناقض والتعارض الفاضح بين فكرتي «احتلال» و«ديمقراطية»^(٣٠)، وهو

العشائر العراقية خزانة القيم والتقاليد العربية الأصيلة وحاملة لواء الحرية والسيادة. لا يمكن لها أن تتكيف مع مسار عملية تفكيك وتفتيت المجتمع العراقي بقيادة الولايات المتحدة.

بذلك يحاول أن يحول مسار التاريخ، ويلغي حقائقه، فالعشائر العراقية، خزانة القيم والتقاليد العربية الأصيلة، وحاملة لواء الحرية والسيادة، لا يمكن لها أن تتكيف مع مسار عملية تفكيك وتفتيت المجتمع العراقي الذي تقوده الولايات المتحدة في العراق، وفي المنطقة العربية بشكل عام. وستواجه محاولات توظيف العشائر وقيادتها التاريخية الفشل. وبالمقابل، فإن على تلك القيادات، وما يعرف عنها من صلابة الموقف وسلامة الرأي، أن تدرك مخاطر المخطط الأمريكي، وأن تواجهه بقوة وصلابة وتعمل على إفشاله، وأن تتوحد تحت راية وطنية لمواجهة الاحتلال وتداعياته السلبية على الحياة في العراق.

إن الرحلة الراهنة من النضال الوطني تستدعي حشد كل قوى المجتمع في مواجهة

(٢٩) ذكرت صحيفة الصباح التي تنطق باسم قوات التحالف في ١٠/١/٢٠٠٤ أن قوات الاحتلال بدأت بالاتصال برؤساء العشائر، وقد رصدت مبلغ ٩١٦,٧٠٠ دولار، أي ما يعادل ٥٦,١ مليون دينار عراقي على شكل عقود لأربعة مراكز للديمقراطية للعشائر في منطقة الجنوب والوسط في العراق لمناقشة «القضايا المتعلقة» ببناء الديمقراطية، كما سيقوم «معهد المثلث للدراسات» التابعة للوكالة الأمريكية للتنمية - الدولية برصد مبالغ أخرى لتأمين فتح مراكز جديدة في كل من الديوانية والنجف وكربلاء، بالإضافة إلى معهد الحلة.

(٣٠) صباح ياسين، «تفكيك البنى الحزبية العراقية في إطار المشروع الأمريكي»، المستقبل العربي، السنة ٢٦، العدد ٣٠٠، شباط/فبراير ٢٠٠٤، وفي المقالة إشارة إلى أن المخطط الأمريكي يسعى نحو تفتيت كل الأطر السياسية والحزبية والجماعية، وكذلك القبيلة من أجل إضعافها، وعدم تمكينها من ممارسة دورها في المقاومة للاحتلال.

شروط التحرر من الاحتلال وبناء الإنسان الجديد، ولا شك في أن الزعامات القبلية في العراق التي ورثت موقفاً جهادياً بأسلاً، وتتمسك بمبادئ وقيم الفروسية والتضحية، مطالبة بأن ترفع سقف دورها السياسي للالتحام بمسيرة العمل والنهوض والتحرر، وأن تقف، وبصلابة أمام كل محاولة لاحتواء أو تزييف لإرادتها ودورها، فالمشروع الوطني اليوم يستلزم تأكيد الآخر بحق العراق في الحرية والتقدم. ولا شك في أن مفهوم المواطنة يستند الى قيم القبيلة ذاتها، ولكنه اليوم في المجتمع المدني يوطر تلك القيم النبيلة والأصيلة في إطار توافق جميع المصالح. والقبيلة في العراق لم تكن يوماً من الأيام، معزولة أو بعيدة عن العمل الوطني في كل مستوياته، بل إنها أثبتت في الظروف الصعبة أنها الاحتياط والسياس الذي يحول دون حالة الانهيار الشامل. وفي تاريخ العراق الحديث، وكما أشرنا الى بعض النماذج في ما سبق، ما يؤيد، بل يؤكد، الدور المنتظر لأبناء العشائر ورموزها القيادية في النهوض بمسؤولياتهم التاريخية، كما سبق أن نهض بها أهلهم وأجدادهم عبر تاريخ العراق الكفاحي من أجل الحرية والكرامة، وقدموا في سبيل ذلك التضحيات الغالية.

وأخيراً، تسجل ذاكرة العراقيين قول الشاعر الشعبي:

«إحنه أهل شط الفرات من اختلك»^(٣١)

إحنه أهل عراكها^(٣٢) كبل الخلك^(٣٣)

السفينة بغير راعيها أتغرك^(٣٤)

إحنا أول بيضة وكل غش ما بينه»^(٣٥) □

(٣١) اختلك... خلق.

(٣٢) اعراكها... تعني بالفصحى (عراقها).

(٣٣) الخلك... البشرية... الناس.

(٣٤) أتغرك... تغرق.

(٣٥) يشير الشاعر إلى أن طير «الشاهين» لا يبيض أكثر من سبع بيضات، واحدة منها فقط تكون «صقراً».